الفصل الرابع

وصف الجبال عند العرب(*)

وصف العرب الجبال (شكل ١٧) وصفًا أدبيًّا رائعًا، ووضعوا لأسمائها المترادفات وذكروا درجاتها المختلفة من الصغر إلى الكبر ثم تحدثوا عن أبعاض الجبل أى أجزائه المتفرقة، وقد حفلت كتب فقه اللغة بفصول كاملة فى وصف الجبال، وما يتصل بها من ظواهر، وسوف نستعرض فى هذا الفصل طرفًا من وصف الجبال عند العرب. قال السموءل بن عاديا:

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسمابه إلى النجم فرع لا يرام طويل

هذان البيتان الجميلان من الشعر هما من وصف العرب الأدبى للجبال، كما أن فيهما حقيقة علمية هامة، وهى أن للجبال أصولاً وجذورا تمتد تحتها كالأوتاد لتثبيتها وتثبيت ما حولها من أرض، الأمر الذى يتفق مع النظريات العلمية الحديثة عن أصول الجبال.

درجات الجبال :

فى كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب، من تأليف الشيخ شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب النويرى (المتوفى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) وفى السفر الأول منه ذكر المؤلف (عن الثعالبى فى كتابه المترجم بفقه اللغة وأسنده إلى أئمتها) أسماء ما ارتفع من الأرض إلى أن يبلغ الجبيل ثم ما ارتفع عن ذلك إلى أن يبلغ الجبل العظيم وترتيب ذلك: «أصغر ما ارتفع من الأرض النبكة، ثم الرابية أعلى منها،

(*) هذا الفصل منشور بكتاب العرب وعلوم الأرض – ط ٢ (١٩٨٨) لنفس المؤلف ، لكن رؤى وضعه هنا لاستكمال عرض موضوعات علوم الأرض وفقه اللغة .

ثم الأكمة، ثم الزبية، ثم النجوة، ثم الريع، ثم القف، ثم الهضبة (وهى الجبل المتوسط على الأرض)، ثم القرن (وهو الجبل الصغير)، ثم الدك (وهو الجبل الذليل)، ثم الضلع (وهو الجبل الذى ليس بالطويل)، ثم النيق (وهو الجبل الطويل)، ثم الطود، ثم الباذخ والشامخ، ثم الشاهق، ثم المشمخر، ثم الأقود والأخشب، ثم الأيهم، ثم القهب (وهو العظيم) ، ثم الخشام».

يكشف النص السابق عن وجود ٢٢ اسمًا مختلفًا ومترادفًا لوصف درجات الجبال التى تتفاوت فى ارتفاعها بين الجبيل والجبل العظيم. هذا وحده يبين ثراء اللغة العربية بألفاظها ومصطلحاتها، ويبين دقة هذه اللغة فى التعبير حينما تمنحك العديد من الألفاظ المتدرجة لوصف الظاهرة الواحدة، وهو أمر قلما يتوفر فى اللغات الأخرى. وطبقا للنص فإن أصغر ما ارتفع من الأرض هو النبكة (بفتح الباء والكاف) وهى رابية من طين محددة الرأس، وأن أعظم الجبال هو القهب ثم الخشام.

أجزاء الجبل :

فى ذكر ترتيب أبعاض الجبل أى أجزائه المختلفة، ذكر نفس المرجع السابق أن أجزاءه مرتبة من أسفل لأعلى كالآتى:

أول الجبل الحضيض وهو القرار من الأرض عند أصل الجبل.

ثم السفح وهو ذيله.

ثم السند وهو المرتفع فى أصله.

ثم الكيح وهو عرضه.

ثم الحضن وهو ما أطاف به.

ثم الريد وهو ناحيته المشرفة على الهواء.

ثم العرعرة وهى غلظة ومعظمه.

ثم الحيد وهو جناحه.

ثم الرعن وهو أنفه.

ثم الشعفة وهى رأسه.

هذا النص يجمع عشرة أسماء مختلفة لأجزاء الجبل مرتبة من أسفله لأعلاه (شكل ١٨)، مبتدأ بالحضيض وهو نقطة اتصال أسفل الجبل بالقرار من الأرض، ومنتهيا بالشعفة وهى رأس الجبل وأعلى نقطة فيه، و (الشكل ١٨) عبارة عن رسم تخطيطى تشريحى لقطاع طولى فى جبل يبين بعض أجزائه المختلفة كما وصفها العرب. هذه الأسماء التفصيلية لأجزاء الجبل هى إثراء للغة العربية يزيد من غزارة مادتها ووفرة مصطلحاتها ودقة التعبير، وهى أمور لا تتوافر فى كثير من اللغات الحية الأخرى.

من أسماء الجبال :

فى مكان آخر من موسوعة نهاية الأرب للنويرى، ذكر المؤلف عن الثعالبى سبعة أسماء أخرى فى وصف صغار الجبال وهى: اليفع، الضرس، الضرب، العننية، العنتوب، الأكمة، الهضبة. يلاحظ أن فى هذه الأسماء السبعة اسمان (هما الأكمة والهضبة) يشتركان مع الأسماء المتدرجة فى وصف الجبال والتى وردت فى نص سابق.

ومن أسماء الجبال (وما فيها من ظواهر) التى ذكرها الأقدمون:

الثنايا: أى التى ليست بصعبة.

والصدع والشقب: شق فيه.

والغار والكهف: مثل البيوت فيه.

والقردوعة: الزاوية فيه.

والشؤون: خطوط فيه.

الكثبان الرملية :

فى كتاب نهاية الأرب للنويرى وفى ذكر ترتيب كمية الرمل، قال عن أئمة اللغة إنه إذا كانت الرملة مجتمعة فهى العوكلة، فإذا انبسطت وطالت فهى الكتيب، فإذا انتقل الكتيب من موضع إلى آخر بالرياح وبقى منه شىء رقيق فهو اللبب، فإذا نقص فهو العداب.

الكثبان الرملية هى أحد الموضوعات الرئيسية التى أهتم بـها علـم الجيولوجيـا الطبيعى، وأفرد لها فصولاً لدراستها. الكثيب جمعه كثبـان عبـارة عـن تـل مـن الرمل يختلف ارتفاعه من مكان لآخر حتى يصل إلى مائة متر أو يزيد، وهو مكون مـن رمـال ناعمـة مسـتديرة الحبيبـات وغـير متماسكة. والكثبـان أنـواع فمنـها المستطيل، وهو يستطيل عادة فى اتجاه هبوب الريح ومنها الهلالى الشـكل، وهـو المعروف باسم البرخان (شكل ١٩). وهنـا نقـارن لفـظ البرخـان الإنجليزى بلفظ عربى ذكره الثعالبى فى كتابه المعنون فقه اللغـة، حيـث قـال إن الكتيـب والنقـا ما أحدودب فيه. أى أن النقا هو الكتيب المحدب أى الذى يأخذ الشكل الهلالى. وهكذا نرى أن العرب كانوا أسبق فى وصـف أنـواع الكثبـان الرمليـة، وبـالأخص النوع المحدب وأطلقوا عليه اسم النقا، وليتنا نستخدم اليوم مصطلح النقا بدلا مـن مصطلح البرخان الأجنبى.

هذا وقد تحدث العرب فى موضوع انتقال الكثبـان فقـالوا فـى النـص السـابق: «فإذا انتقل الكتيب من موضع إلى آخر بالرياح وبقى منه شىء رقيق فهو اللبـب، فإذا نقص فهو العداب». ومن المعروف لدينا اليوم أن الكثبان الرمليـة تنتقـل مـن مكان لآخر بفعل الرياح، وتختلف سرعة انتقال الكتيب علـى حسـب قـوة الريـح الناقلة. وطريقة انتقالها أن تنزع الريح الطبقة الرفيعة العليا مـن الرمـال مـن أحـد جوانب الكتيب ثم تعيد ترسـيبها علـى الجـانب الآخـر منـه، ومـع تكـرار هـذه العملية يتحرك الكتيب من مكانه فى اتجاه الريح. وقـد يتبقـى شـىء مـن الرمـال مكان الكتيب القديم، وهذا ما وصفه العرب بأنه اللبـب أو العـداب، ويصعـب أن نجد لهذين المصطلحين مثيلاً فى اللغات الأخـرى. ومـرة أخـرى هـذه الدراسـات وغيرها توضح ثراء اللغة العربية بألفاظها ومصطلحاتـها وكلماتـها المترادفـة ودقـة التعبير، مما يجعلها أهلا لأن تكون لغة العلم فى كافة مجالاته وفروعه.

الوصف الأدبى للجبال :

من نماذج وصف العرب الأدبى للجبال ما ذكره القلقشندى (المتوفـى سـنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) فى كتابه الموسوم صبح الأعشى فـى كتابـه الإنشـا، يقـول القلقشندى فى وصفه الرائع للجبال:

فأما الجبال فهى أوتاد الأرض أرسى الله تعالى بها الأرض حيث مادت لما دحاها الله تعالى على الماء.. وقد نقل أن قاف جبل محيط بالدنيا عنه تتفرع جميع جبال الأرض والله أعلم بحقيقة ذلك. وتوصف الجبال بالعظمة فى القدر والعلو وصعوبة المسلك وما يجرى مجرى ذلك. وأما الأودية فهى وهاد فى خلال الجبال جعلها الله تعالى مجارى للسيل ونبات الزرع ومدارج الطرق وغير ذلك وتوصف بالاتساع وبعد المسافة والعمق وربما وصفت بخلاف ذلك.وأما القفار فهى البرارى المتسعة الأرجاء الخالية من الساكن وتوصف بالسعة وبعد المسافة وقلة الماء والايحاش وصعوبة المسلك وما يجرى مجرى ذلك.

فى النص السابق، وصف القلقشندى الجبال على أنها أوتاد الأرض خلقت من أجل أن ترسى دعائمها، وهو وصف يتفق مع النظريات العلمية الحديثة كما أشرنا إلى ذلك فى صدر هذا الفصل، وتحدث بعد ذلك عن جبل قاف الذى يحيط بالدنيا من وجهة نظره. وأخذ فى سرد ما توصف به الجبال من عظمة فى المقدار وعلو فى الارتفاع ووعورة فى المسلك، ثم أورد ذكر الأودية والقفار.

جبال إفريقيا الاستوائية :

فى موسوعة نهاية الأرب للنويرى، ورد أن «أبا الفرج قدامة بن جعفر» قال فى كتابه الخراج عن جبال إفريقيا الاستوائية: «وجدت خلف خط الاستواء فى الجنوب وقبل الإقليم الأول جبالا تسعة: خمسة منها متقاربة المقادير، أطوالها ما بين أربعمائة ميل إلى خمسمائة ميل، وجبلا طوله سبعمائة ميل، وجبل القمر وطوله ألف ميل، وجبلا بعضه وراء خط الاستواء وبعضه فى الإقليم الأول، وجبلا بعضه وراء خط الاستواء وبعضه فى الإقليم الثانى».

هذا النص يبرهن بما لا يدع مجالا للشك، أن العرب كانت لهم معرفة ودراية واسعة بمناطق إفريقيا الاستوائية، فهو يشير إلى وجود بعثات كشفية عربية

ارتادت هذه المناطق، فضلا عن دراسة ما بها من جبال، وحصر عددها وقياس أطوالها وتحديد مواقعها. هذا الجانب يبين اهتمام العرب بدراسة الجبال دراسة علمية متأنية قوامها الاستكشاف والمشاهدة بجانب عمليات المسح والرصد.

الخلاصة :

يهتم هذا الفصل بوصف الجبال عند العرب. فبعد استعراض طرف من الوصف الأدبى للجبال عند العرب، ذكرنا درجات الجبال ووجد لها ٢٢ اسمًا مختلفًا لوصف درجات الجبال التى تتفاوت فى ارتفاعها بين الجبيل والجبل العظيم. ثم أوردنا ترتيب أبعاض الجبل أى أجزائه المختلفة ووجد لذلك عشرة أسماء مختلفة لأجزاء الجبل مرتبة من أسفله لأعلاه. أما عن موضوع الكثبان الرملية فظهر أن العرب كانوا أسبق فى وصف أنواع الكثبان الرملية وبالأخص النوع المحدب، وأطلقوا عليه اسم النقا، وليتنا نستخدم اليوم مصطلح النقا بدلا من مصطلح البرخان الأجنبى. وتبين النصوص أن العرب كانت لهم معرفة ودراية واسعة بمناطق وجبال إفريقيا الاستوائية.

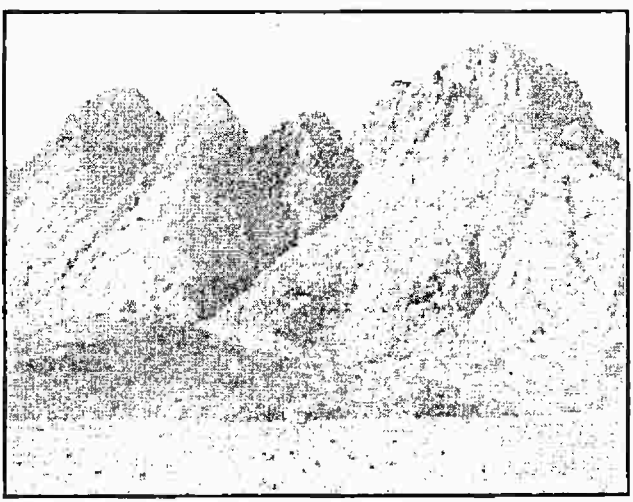

(شكل ١٧) : منظر عام للجبال. عن كتاب الجيولوجيا، حسن صادق (١٩٢٩).

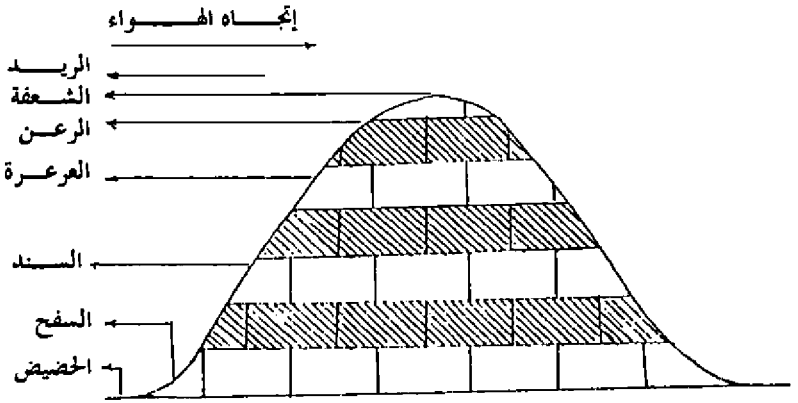

(شكل ١٨): قطاع طولى فى جبل يبين بعض أجزائه المختلفة كما وصفها العرب.

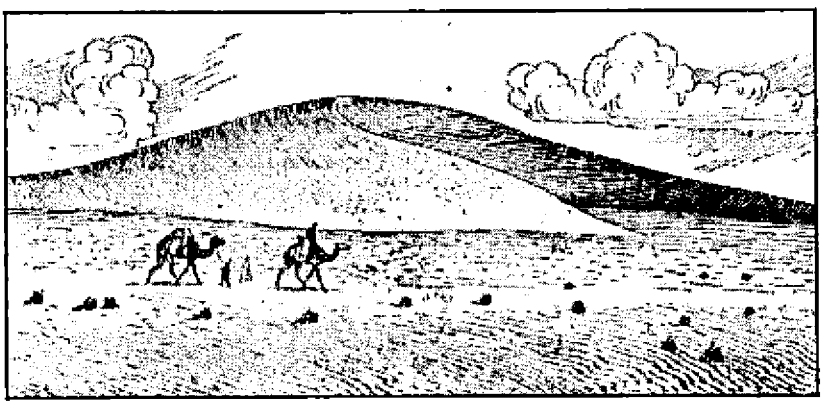

(شكل ١٩) : الكثيب الهلالى أو البرخان وقد أطلق عليه العرب لفظ النقا.
عن كتاب الجيولوجيا، حسن صادق (١٩٢٩).